بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة صلاة الجمعة لفضيلة الشيخ مُحَمَّد الفحام

رمضان والتقوى

الحمد لله، الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وما توفيقي ولا اعتمادي إلا على الله، وما توكلي ولا اعتصامي إلا بالله، اللهم إني ضعيف فَقَوِّ في رضاك ضعفي، اللهم إني أبرأ من حولي وقوتي وألجأ إلى حولك وقوتك، فإنه لا حول ولا قول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين.

اللهم احفظنا من فوقنا، ومن تحتنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، ومن خلفنا، ومن أمامنا، ومن بعضنا، ومن كلنا، وحُل بيننا وبين ما يحول بيننا وبينك يا أرحم الراحمين.

الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَن يَهد الله فهو المهتد، ومن يُضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا مُحَمَّداً عبده ورسوله، وصفيه من بين الخلق وخليله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً.

اللهم صل على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، صلاة تصل قلبنا بقلبه، وروحنا بروحه، وجسدنا بجسده، وحالنا بحاله، وشأننا بشأنه، صلاة تصلنا بربنا.

اللهم صل على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً صلاة تفتح لنا أبواب الرضا والتيسير، وتغلق بها أبواب الشر والتعسير، أنت مولانا فنعم المولى ونعم النصير.

أما بعد عباد الله، أوصيكم ونفسي الخاطئة بتقوى الله، وأحثها وإياكم على طاعته، وأنهى نفسي وأنهاكم عن معصيته، وأستفتح بالذي هو خير.

يقول ربنا الجليل في محكم بيانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَعْدُودَات﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤].

أيها الإخوة المؤمنون: كُلنا يَحفظ هذا البيان، وكُلنا قد سمعه مراراً وتكراراً، ولكن يا ترى هل جميعنا وقف حيال محراب خطاب الحق وقفة تأمل وتدبر؟ ألق السمع أخا الإيمان إلى بيان الحنان المنان في دعوته للإنسان ليرفعه إلى أعلى الجنان بمعراج التقوى والهدى والفهم عنه، فهو الرحيم الرحمان، ﴿يا آيها الذين آمنوا﴾ ينادي، وهل ربنا بحاجة للنداء؟ هل سألنا أنفسنا؟ فأداة النداء يا للبعيد، وبحذفها للقريب، أيها المؤمنون، يا فلان لأنه بعيد، وفلان أو أيها الأخ لأنه قريب، ربنا يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لو كانت يا أيها الناس لكانت في ذلك إشارة إلى غفلة الكثير من شرائحهم عن نداء الحق وعن أمر نجاتهم ورحمة الله لهم وحبه لهم ما يُرضيه عنهم في أعمال وأقوال، ولكن لما جاء التوصيف بعد النداء بيا أيها الذين آمنوا، فأثبت صفة الإيمان لهم، كانت هذا الأداة إشارة إلى عظيم قدرهم وجلالهم عند ربهم، فكان النداء لعظيم وجودهم لعظيم مكانهم ولكن بعنصر الإيمان، بعنصر ما متعتهم به، وضمن لهم التقوى لأنهم مؤمنون، ولكن المولى سبحانه وتعالى لما أعلن أنه يُحب أن يرضي عباده ويُحب أن يُمدهم أعلن أنه يُحب أن يبقي فيهم أمر الارتقاء، فللولاية بداية وليس لها نهاية، فلو سألتك: إلى أي حد عطاء الله؟ فهل من أدبك مع مولاك ومعرفتك به أن تقول عند رقم كذا وكذا وهو الله وهو المعطي على الإطلاق؟ ولا نهاية لولاية الإنسان بين يدي المعطي الولي الحق جل في علاه.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في طيات (يا أيها) تنبه، لا تنسوا نعمتي عليكم أنكم مؤمنون، وأن المؤمن الحق الذي ذاق طعم الإيمان هو الذي بسرعة سريعة يقول: لبيك ربنا، والله من متكلم وتعال الله عن النقائص وله صفة الكلام، إذاً فنداؤه باقٍ، وترقيته لكل مؤمن لا تنتهي أبداً، وعطاؤه على هذا المستوى تحت ظل قوله

وإشارته: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤] فيا أيها الذين آمنوا لا تنسوا ما متعتكم به من إيمان، فأنبهكم إلى هذه النعمة إلى حد قولي: يا أيها الذين آمنوا ﴿آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١] من هذه النعمة الراقية، ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لبيك ربنا، أكذلك أم لا؟ الآن ودائماً يقول لك ربك: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ يقول والد إقبال الشاعر الإسلامي المعروف: (يا ولدي، إذا أردت أن تفقه كتاب الله فاقرأه كأنه أنزل عليك) هل يعني بذلك أن يعد أو يعتبر الإنسان نفسه نبياً؟ لا، وإنما إشارة إلى القاسم المشترك بينك وبين نبي الله ﷺ في أمر التكليف، ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لرسول الله فقط؟ خبروني، أمر الأحكام بينك وبين الحبيب عبر إمامته عبر نور قدوته وأسوته، النبي وكل من تبع رسول الله عليه الصلاة والسلام بنور هذه النعمة ومعراج ارتقائه عبرها.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لبيك ربنا ﴿كتب عليكم الصيام﴾ فُرض عليكم الصيام، لم تكن على طريق لفتات الغيبة أو التقريع لِيَرجع الغافل، بل ليثبت على ما هو عليه ذلك المؤمن ويتنبه من غفل عن هذه النعمة، ﴿كتب عليكم﴾ كاف الخطاب، هذا شرف، يُخاطبك ربك فيقول: يا عبدي كتبت عليك، فما عليك أن تقول، وما ينبغي عليك أن تفعل، هنا هذه النقطة.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم﴾ ولم يُعَوِّل على ذكرهم بأكثر مما ذُكر لأن الذين قبلنا قصروا كثيراً، أفيليق بنا أن نأتسي بهم، أم نأتسي بأول المخاطبين رسول الله ﷺ.

أيها الإخوة: خطاب الشرف ونداء الإجلال وتأكيد صفة الإيمان لتحقيق ما أنتم عليه مع المضاعفة والإكثار والإمداد في مقامات التقوى، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ أيترجى ربنا؟ أيرجو خالقنا؟ يَعني يقول ربك أرجوك اتقيني؟ تَعال الله عن ذلك علواً كبيراً، بل إثبات على التحقيق، والمعنى لتتقوا، فأنتم مؤمنون، فالتقوى حاصلة، وعليه فَمَن يُعرض ومن لا يُعير

رمضان اهتمامه، ومن يقول في حق رمضان بلسان حاله قبل قاله: لأبددنّ شمله بنوم النهار ولعب الليالي، والعبث قدر ما أستطيع، أو لأبددن شمله بالأسفار، أو بالأمراض حتى ليلة العيد، لحظاتها أعيد عن رمضان ولست من أهل رمضان، أفيليق بمن وصف بالإيمان أن يكون صاحبها؟ لا وربك، تَخشى الحر؟ ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١] ما الذي رَفع شأن علي إلى مستوى ذوق طعم الصوم في شدة الحر، فكان أحب الأعمال إليه أن يصوم في شدة حر الصيف، سر ذلك أن هنالك رَيَّان للصائم، بمقدمة ونتيجة، وليس لسواه كما أشار الحديث، الذي يصوم احتساباً ولا ينظر إلا أمر الله تبارك وتعالى في شدة بل ذروة لحظة العطش يتساءل: كيف ذهب العطش؟ كيف استقر مني الأمر؟ كيف استطعت أن أتابع؟ كيف استطعت أن أنهض بنفسي؟ كيف استطعت أن أتناغم مع عبادتي صوماً وعملي تكليفاً وإنفاقاً؟ إنه عون الله، لما استكان هذا المؤمن لأمر الله، التطبيق وتحريك الجوارح إسلام، والانقياد والتسليم إيمان، فإن كان هذا الإنسان على هذا المستوى من الإصغاء لوحي الديّان كان صاحب إحسان، وعليه فَحُقَّ لهذا الذي لبى ربه وأنس للخطاب أن يُقال له: انظروا إلى رجل هُوَ من أهل الجنة، من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى رجلٍ صام رمضان إيماناً واحتساباً، تريد الدليل؟ ألق السمع أخا الإيمان، في الصحيحين وغيرهما، أعرابي يقبل على الحبيب ﷺ، يَسأله عن مختصر مُعين ومَنهج ينتهجه في حياته بضمان الجنة، ممن؟ من رسول الله ﷺ، نعم هو ضامن، نعم هو زعيم بأمكنة ودرجات في الجنة لكل من يصغي، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة كلنا يعلم ذلك، ((أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن يترك الجدال وهو محق)) أنا زعيم أي ضامن، فالنبي أُعطي من ربه انقياداً أنه إذا رأى إحساناً في الالتزام وتلقي الأحكام أن يُبشره بالجنة، (يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة) دلني، أرشدني، قدني إليها، خذني بيدك إلى الله على جناحي أمانك، يا رسول الله، فقال له –بدأ القبول وأمر

الضمان عبر ثوابت هي من الأساس بمكان يُشيد عليها بناءً شامخاً يَبلغ عنان السماء- ((تعبد الله ولا تشرك به شيئاً)) هذا أصل، ولا تشرك به شيئاً، وهذا التنكير أشار إلى التعميق، وفيه معنى التقليل أيضاً، لو كان شرك خفي كدبيب النمل لا يُقبل وبه لا يقبل العمل، فلا شرك جلي ولا شرك خفي على الإطلاق، ((تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان)) لم يَذكر الحج ﷺ، قال العلماء: إما لأنه لم يفرض بعد، أو لم يَكن من أهل الإلزام لأنه فقير، ((تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصوم رمضان)) فقال الأعرابي -وقد تلقاها بقلب مُنقاد وعقل يقظ وتفتح واضح-: (والذي نفسي بيده لا أزيد عليها) هذه رواية البخاري، زيادة في مسلم: (ولا أنقص) بعض العلماء قالوا: لما التزم بها كان بطبيعة الحال بصدقه صاحب ذوق، فالزيادة في النفي حاصلة، ((وما تقرب إلي عبدي أحب إلي مما افترضته عليه)) جاءت بعدها لأنه تقرب بالحب النافلة ((ولا يزال يتقرب إلي عبدي بالنوافل حتى أحبه)) أكثر وأكثر، ((فإذا أحببته)) إلى آخر الحديث، أرأيتم الإشارة الدقيقة، أو قال بعض أهل العلم: أنا أتلقى عنك يا رسول الله فأتبع ولا أبتدع، يعني لا أصلي أربع الركعات الظهر أجعلهم خمساً وأقول: زيادة الخير خير، فهذا هو الضلال، أن يَزيد على أصل النص وعلى فرض الإنسان، وأن يزيد على ما جاء عن النبي إثباتاً، الموضوع واسع ليس هنا محل شرحه، ولكن لفتة إشارة على التزامه بهدي الحبيب مائة بالمائة، (لا أزيد ولا أنقص) فنظر إليه رسول الله ﷺ مَسروراً فقال: ((من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا)) الله أكبر، إلى رجل من أهل الجنة، ضمن له الجنة ولما يبتدر العمل بعد، إذاً الصدق أولاً، والإخلاص علامته، وارتقاء الولاية في معراجه آثار فضل الله على صاحبه، أكذلك أم لا؟.

أيها الإخوة: أنا أبدأ بهذه اللفتة اللطائفية فأقول: هَبْ أن ضيفاً عزيزاً أو ضيفاً عادياً زَارك، قرع بابك، كيف تستقبله؟ سَألتُ أحد الناس البارحة: تُحب الضيف؟

قال: نعم، لأن الجنة بلا ناس لا تُداس، فقلت له: ما أبعدك عن الفهم عن الله، ألأنك تُحب الناس تَستقبل الضيف، وإذا كنت لا تُحب الناس لا تستقبل الضيف، قال: كل الناس هكذا تقول، وإذا كل الناس تقول هذا تصبح قاعدة أساسية؟ لا، هذا الكلام خطأ، إذا كنت لا تَستأنس إلا بالناس فهذا دليل الإفلاس، لم؟ تسألني: يعني أنا لا أقرب الناس؟ لا، ليس هذا هو الموضوع، ليس هذا هو القصد، إنما إذا كنت تستأنس برب الناس عبر أدبك مع مخلوقاته وعباده فأنت صاحب الأنس على الجمعية والتفريد، يَعني أنت مع الله بين يدي الضيف، قال العلماء –خذها مني وتوكل على الله، وهي نقلاً عن أهل الذوق والتحقيق والتمكين، قالوا ﷺ–: مُعتاد أنت تصلي الضحى في وقتها وظرفها، لَحظتها قرع بابك أحد المحتاجين، فَكان هذا الظرف ضيفك، يعني هذا الظرف هو ضيفك، فشغلت به حتى أذن الظهر، حتى أذن الظهر وفاتتك صلاة الضحى، ليس بإرادة القصد وحبك لذلك، بل شُغلت بشأن عن شأن، أفيفوتك ثوابها وأنت كنت تنوي أن تصليها، لا وربك، بل إن ربك يُضاعف لك لأنك شُغلت بشأن يُحبه، وكان لك حيال هذا الشأن كاعتكاف عشر سنوات في مسجد الحبيب، ويَجعل الله بينك وبين جهنم ثلاثة خنادق بين الواحد والآخر كما بين السماء والأرض، لما كنت صاحب أدب مع شأن من قال: ﴿كل يوم هو في شأن﴾ والآن جاءك الضيف، لو كان مِن بَشر، من عزيز، من مسؤول، يَقول لك: فلان يُسَلِّم عليك، تستقبله وتحتفي، وتقضي الحاجة وأنت مأجور، فكيف إذا كان ضيف ربك، خبرني كيف تعامله؟ ألق السمع إلى تفاعل رسول الله ﷺ، لولا رسول الله كان لنا وقفة على مثل هذا المنبر؟ لا وربك، فأكثروا من الصلاة والسلام على نور القلب وحبيب قلوبنا جميعاً صلى الله عليه وسلم، بدايةً يقول: ((إن اللهَ فرض عليكم صيام رمضان –وأنا ماذا يجب أن أفعل، وأنا مظهر تشريعه– وسننت لكم قيامه)) لاحِظ أن الناس في هذه الأيام شريحتين:

الشريحة الأولى: ما اعتادت أن تصوم إطلاقاً ولا أن تصلي إطلاقاً ولا أن تقرأ القرآن إطلاقاً إلا في رمضان، فإذا بدأ رمضان وانقطعوا عن الطعام بَدأت تسوء أخلاقهم عبر عدة أيام في مقدمة أيام رمضان إذا أصروا أن يصوموا إلى أن يعتادوا، فإذا ما أقبل الليل وأذن ودخل وقت المغرب أكلوا بشره، وتوجهوا إلى المشتهيات بطريقة عجيبة، حتى إذا كاد أن يُؤذن العشاء أدركوا صلاة المغرب مِن غير تعقل لهذه الصلاة على الإطلاق، وليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها، فإذا ما قلنا له: يا أخي في صلاة تراويح بعد صلاة العشاء؟ هو صلاة العشاء لم يكن يركز عليها، فكيف سيركز على ٢٩ ركعة من صلاة العشاء إلى آخرها، وإذا كان الإمام صاحب قراءة متينة ويقرأ على رأس الآي يَقف ويتهدى، وربما كان صاحب ختمة لا نعرف ماذا سيحصل معه، لذلك أذكر مرة صلينا في مسجد كُنا ضُيوفاً على أهله، فثبت رمضان في هذه القرية، فقيل لنا: لا تُغادرونا حتى تُصلوا بنا التراويح، فأحدنا كان الإمام، هذا مُعتاد أن يُصلي عشرين كما ورد، ورضي الله عن سيدنا عمر الذي جمع الناس على هذا وكان إجماعاً من جميع الصحابة، بدأ أول اثنتين، ثاني اثنتين، ثالث اثنتين، رابع اثنتين، انحسر عن الصفوف عدد هائل، وبدأوا يلغطون ويشتمون الإمام، فأقبل عليه رجل فقال: ما بالك؟ ما الشأن؟ قال: ويحك صلى مائة ركعة، وهو صلى ثمانية، فعنده مائة لأنه في الأصل لا يُصلي، وساء الخلق بطريقة عجيبة، فما غادرنا المكان إلا بعد عناء شديد، وقد أُكل لحمنا ولم نُطل الصلاة، يعني فاتحة وآيتين أو ثلاثة، آيتين وسط أو ثلاث قصار، يعني على التخفيف، ومع هذا أُكل لحمنا بشكل عجيب، أسأل الله العفو والعافية.

الشريحة الثانية: هِي التي تُقبل على الله بِتَمُّكن، بأنها مُعتادة أن تصلي الصلوات في أوقاتها، خاصة الذي يصلي بجماعة، ومعتاداً أن تتلو القرآن، فحينما تقبل وتجد الدوحات قد توسعت تزداد نوراً، ولكن تبقى على تأرجح خفيف، يتمخض عن هذا الكلام شريحة عدها جد قليل، تلك التي كانت تقوم عبر السنة، وتصوم عبر

السنة، ولا تترك الختمات عبر أيام كل السنة، حتى إذا ما أقبل رمضان كانت صاحبة رمضان بامتياز، فهؤلاء الذين يَبقون، انظر إلى بداية الصلاة كيف يكون العدد في البداية، وكيف يكون في النهاية، وخير الناس آخرهم خروجاً من المسجد، هؤلاء الذين فعلاً قَلبهم مُعلق بالمساجد، لذلك المظل تحت ظل الله من السبعة من ورجل قلبه معلق بالمساجد، تسألني: أين ذهبت بنا؟ لا وربك ما زلت في الدائرة، ولكن أحببت أن تكون مقدمة لأشير إلى الحبيب القائم الصائم الذي كان دائماً مُتلبساً بطاعة مع ربه عبر سني عمره كلها من ليل أو نهار.

كان رسول الله ﷺ أجود الناس، كم نعرف كرماء في الدنيا، كان أجود الناس عليه الصلاة والسلام، ما في أجود منه، وكان يضاعف عمله في رمضان، كيف؟ لذلك لما أرادوا أن يُوَصِّفُوا حالته في رمضان قالوا: (وكان في رمضان أجود في الخير من الريح المرسلة) لم يَقل: الرياح، قال: الريح، في شدتها، في سرعتها، في قوتها، في إرسالها، في رمضان أجود من الريح المرسلة، بالصدقات، بالمبرات، بالأعطيات، بالصلوات، بالعبادات، بالتلاوات، وكان يُتحَفُ ويُتحِف، يُتحَف بجبريل يدارسه القرآن أكثر من مرة، ويُتحِف أن جبريل يُحب رسول الله بَعد الله حباً عظيماً، كان أخاه في الله، فيأنس كل الإيناس بلقاءه بجبريل، ويوماً تأخر عنه فَعَتِب فقال: إنه ينتظر الأمر، وذكر العلة عليه الصلاة والسلام، فأشار إلى شوقه الشديد إلى رسول الله كما أشار رسول الله إلى شوقه الشديد إلى جبريل عليه السلام.

ختاماً أيها الإخوة، في القلب الكثير، واللفتات أكثر، وبركة قلوبكم في إمداداتها لا تنقطع، لأنها بدأنا لقاءنا على مقام الحب، أسأل الله أن لا يتوقف ولا ينتهي إلى آخر العمر وآخر نفس، جزاكم الله عني كل خير، وعن هذا المنبر كل خير، وعن كل هذه الأرجاء في الدنيا كل خير، إنه سميع مجيب.

يتصرف